مؤتمر المستشرقين الدولى

الحديث عن الدورة السادسة والعشرين للمؤتمر ، وقد عُقِدت فى نيودلهى فى يناير ١٩٦٤ . وما أقدمه هنا ليس تقريراً عن المؤتمر . وإنما هو عرض سريع لافت إلى ضآلة اهتمامنا بمؤتمر يشتغل بقضايا من صميم وجودنا : بالقياس إلى ما يوجه الغرب إليه من عناية جادة واهتمام بالغ .

شرق وغرب

فى صيف عام ١٩٥٧ ، كانت الدورة الرابعة والعشرون لمؤتمر المستشرقين فى ميونخ .

والتقينا هناك فى بهو الجامعة ، جمعاً عجيباً مختلط الألوان والأزياء ، متفاوت الملامح والسمات ، متعدد اللغات واللهجات .

يومها ، تنبهت لأول مرة ، إلى أن المؤتمر عقد كل دوراته السابقات فى بلاد أوربية ، أصالة أو بالتبعية :

فى القرن الماضى ، عُقِدت دوراته الاثنتا عشرة الأولى فى :

باريس سنة ١٨٧٣ ، ولندن سنة ١٨٧٤ ، وسانت بيترسبورج سنة ١٨٧٦ ، وفلورنس سنة ١٨٧٨ ، وبرلين سنة ١٨٨١ ، ولَيْدن سنة ١٨٨٣ ، وڤيينا سنة ١٨٨٦ ، وستوكهلم سنة ١٨٨٩ ، وجنيف سنة ١٨٩٤ ، وروما سنة ١٨٩٩ .

ثم فى القرن الحالى ، عُقِد المؤتمر فى :

هامبورج سنة ١٩٠٢ ، والجزائر — تحت الاحتلال الفرنسى — سنة ١٩٠٥ ، وكوبنهاجن سنة ١٩٠٨ ، وأثينا سنة ١٩١٢ ، وأكسفورد سنة ١٩٢٨ ، وليدن سنة ١٩٣١ ، وروما سنة ١٩٣٥ ، وبروكسل سنه ١٩٣٨ ، وباريس سنة ١٩٤٨ ، واستانبول — فى تركيا التى انسلخت من الشرق — سنة ١٩٥١ ، وكامبردج سنة ١٩٥٤ ، ثم هذه الدورة فى ميونخ سنة ١٩٥٧ .

* * *

وخطر لى أن أسأل لجنة تنظيم المؤتمر ، أن تفسر ما بدا لى من شذوذ الوضع : فاختصاص المؤتمر بالدراسات الشرقية ، يجعل الشرق هو المكان الطبيعى لانعقاده ، كما أن الصفة العلمية لمثل هذا المؤتمر الجليل ، جديرة بأن تعصمه من جموح التعصب لغربٍ على شرق .

وقيل لى ببساطة :

— ليس الأمر كما تتصورين ، فمفهوم الاستشراق هو تخصص علماء غربيين فى الدراسات الشرقية على اختلاف مجالها . وفكرة انعقاده اتجهت أصلاً إلى اجتماع هؤلاء المستشرقين الغربيين ، لتبادل الرأى فى الجديد من بحوث الاستشراق ، فكان من الطبيعى أن يُعقد فى أى بلد أوربى له نشاط فى هذا الميدان ، دون الغفلة عن أهمية اشتراك الشرقيين فيه ، ممن لهم تخصص فى الدراسات التى تهم المستشرقين .

قلت بصراحة :

— ذلك لا ينفى شذوذ الوضع ، بل لعله يؤكده ، إذ يجعلنا نحن الشرقيين الأصلاء . أشبه بضيوف مدعوين . ثم إنه لا يجيب عن السؤال : ما دامت أعمال المؤتمر خاصة بالشرق ، فلماذا لا يجتمع المستشرقون فى بلد شرقى ؟

وكان الجواب :

— وجّهوا الدعوة إلى عقده فى بلدكم إن شئتم ، ولن نتردد فى عرضها على أعضاء المؤتمر فى جلسته العامة بعد يومين .

وأسرعت إلى الزملاء المصريين — وكانوا سبعة أعضاء — أشاورهم فى الأمر ، ففوجئت بأننا لا نملك حق توجيه الدعوة ، دون تفويض من الدولة ، أو استئذانها عن طريق سفارتنا فى « بون » .

واليومان الباقيان ، لموعد الجلسة العامة ، لا تكفيان للاتصال بسفارتنا فى بون ، ثم اتصال السفارة بالقاهرة وانتظار الرد !

واقترحت على أستاذنا الجليل « السيد حسن حسنى عبد الوهاب » أن يدعو المؤتمر إلى عقد دورته التالية فى تونس ، وله تأييدنا المطلق .

ولكن موقفه كان مماثلاً لموقفنا ، وضاعت الفرصة .

وقرر المؤتمر قبول دعوة الوفد السوفييتى ، للانعقاد فى الدورة التالية ، فى موسكو .

* * *

وفى موسكو ، سنة ١٩٦٠ ، تكررت المحاولة :

بادر العضوان المصريان بالمؤتمر « الأستاذ أمين الخولى ، والأستاذ محمد حسين » فاتصلا إثر وصولهما بالسيد سفيرنا هناك . واقتنع سيادته بالفكرة فبادر بالكتابة إلى القاهرة ، يستأذن فى توجيه الدعوة .

ومضت فترة انتظار ، حتى جاء الإذن من القاهرة ، بعد أن أفلتت الفرصة هذه المرة أيضاً :

فأثناء فترة الانتظار ، كان بنو إسرائيل هناك . يقحمون سياستهم على المؤتمر ، ويُحذرون من عقده فى أى بلد عربى ، لكيلا يحال دون اشتراك إسرائيل فيه :

وفى الجلسة العامة الختامية للمؤتمر ، عُرضت عليه دعوات من : مصر . والعراق ، والهند ، وأمريكا .

ووقف مندوب العراق ، فأعلن تنازله عن دعوته ، تأييداً لمصر ، قائلاً : إن بغداد والقاهرة سواء .

وأدرك الوفد الأمريكى أن التيار مع الشرق ، فتنازل عن دعوته تأييداً للهند ، على أن تكون الدورة التى بعدها لأمريكا .

ومال « غفوروف : رئيس الدورة » بعيداً عنا ، وقال فى حديث خاص يبرر موقفه : إن مصر ليس لديها من العلماء المتخصصين فى بحوث التراث الشرقى مَن يمثلونها فى الشعب العشر للمؤتمر . والمفروض — فى تقديره — أن يكون للدولة الداعية من يرأسون كل لجانه . وقد يكون لمصر علماء فى المصريات ، وربما فى الإسلاميات والإفريقيات ، لكن ماذا عن الدراسات الهندية والقوقازية والإيرانية والعبرية ؟

وأخذت الأصواتُ على الدعوة الموجهة من مصر والهند ، فنالت الهند الأغلبية .

وبقدر ما اغتبط الأعضاء العرب بنجاح دعوتهم إلى عقد المؤتمر فى بلد شرقى ،

وبقدر ما تقبلوا كسب الهند للدورة بشعور الرضى والارتياح ، تقديراً لعراقة تاريخها وأصالة شرقيتها ، واستجابة لما يربطنا بها من أواصر ود متبادل ، وصلات مادية ومعنوية على مسار التاريخ ،

أقول : بقدر ما تلقى الأعضاء العرب هذا القرار بغبطة وارتياح ، ضاقوا بالتبرير الغريب الذى قدمه رئيس الدورة ، كما أنكروا إقحام السياسة على مؤتمر علمى ، تأثراً بالدعاية الإسرائيلية .

وغاب عن المؤتمر ، وهو يؤخذ بخدعة إسرائيل فى أن عقده ببلد عربى يحرمها قطعاً من الاشتراك فيه ، أن وضعا مماثلا حدث ، ويحتمل أن يحدث ، فى أى مؤتمر دولى يعقد فى أى مكان من الدنيا :

ومؤتمر المستشرقين عقد فى تركيا سنة ١٩٥١ ، ولم تشترك مصر فيه لأسباب سياسية .

وعقد فى ميونخ بألمانيا الغربية سنة ١٩٥٧ . ولم تشترك فيه ألمانيا الشرقية . لأسباب سياسية كذلك .

ولم تتعطل هذه الدورة أو تلك ، ولا فُتحت ثغرة تهب منها ريح السياسة . وحين تقرر عقده فى الهند ، لم يواجَه القرار باحتمال عدم اشتراك الصين وباكستان فيه ، ولهما من العراقة التاريخية والأصالة فى موضوع المؤتمر ، ما ليس لإسرائيل الطارئة.

وهو ما حدث فعلاً . . .

ذهبنا إلى الهند ، وقد أنستنا فرحةُ اللقاء بشعبها الصديق وزيارتنا للبلد العريق الذى أهدى البشرية تراثه الفكرى والروحى من قديم الزمان ، أنستنا هذه الفرحة ما طوينا من ذكرى الموقف فى الدورة السابقة .

لكن واقع الأحداث ما لبث أن ذكّرنا بما حاولنا أن ننساه :

التقى الجمع فى قصر المعرفة بنيودلهى ، مختلطَ الألوان والأزياء ، متفاوت الملامح والسمات ، متعدد اللغات واللهجات :

ألف وبضع مئات من الأعضاء ، وفدوا من شتى أنحاء الدنيا ، يمثلون تسعاً وأربعين دولة شرقية وغربية ، عريقة ومحدثة .

ولم تشترك فيه الصين الشعبية .

وكذلك لم تشترك فيه باكستان .

وفى جلسته الختامية تقرر عقده، سنة ١٩٦٧ ، فى أمريكا ، دون أن تُقحم السياسة هذه المرة ، بإثارة احتمال عدم اشتراك دول عربية أو الصين الشعبية فيه ، والجو السياسى مشحون بنذُر مرهصة بمثل هذا الاحتمال .

فلماذا ساغ إقحام إسرائيل على المؤتمر عند ما عرضت عليه دعوتنا ؟ الجواب عند من حملوا إثم هذا الإقحام ، متأثرين بخدعة مكشوفة ، ومحصورين فى أفق ضيق لا يقدر التعبة . ولا يحسب حساباً لما وراء هذا الإقحام من سوابق وعواقب خطيرة .

وعلى كل حال ، لم يكن غياب الصين وباكستان عن المؤتمر مفاجأة لى ، فقد توقعت من قبل أن يحدث مثل هذا فى أى مؤتمر دولى يعقد فى أى بلد من بلاد الدنيا .

ولكن الذى لم أتوقعه ، هو أن أجد كل الرؤساء لأقسام المؤتمر العشرة ، لدورة نيودلهى ، علماء من غير الهنود !

قسم الدراسات الإسلامية : يرأسه الدكتور ولفريد سميث ، من جامعة هارفارد
قسم الدراسات السامية : يرأسه المستشرق فولكشتاين ، من هايدلبرج .
قسم الدراسات القوقازية : يرأسه المستشرق بوريس بيوتروفسكى ، لينجراد
قسم الدراسات التركية : يرأسه الدكتور زكى طوجان ، من جامعة استانبول
قسم الدراسات الإيرانية : يرأسه الأستاذ بورداوود ، من جامعة طهران ،
قسم دراسات جنوب شرقى آسيا : يرأسه الدكتور زويتمولدر ، من جاكرتا
قسم دراسات الشرق الأقصى : يرأسه الدكتور كاكو إينوكى ، من جامعة طوكيو
قسم الدراسات المصر : يرأسه الدكتور عبدالمنعم أبو بكر ، جامعة القاهرة
قسم الدراسات الإفريقية : يرأسه الدكتور بيتشى — من جامعة شرق إفريقية فى كامبالا : أوغنده

وأعجب من هذا ، أن قسم الدراسات الهندية ، بشعبه الخمس ، كان رؤساؤه من غير الهنود :

المستشرق الفرنسى لاكومب ، لشعبتى الدين والفلسفة
المستشرق الألمانى بون تيمس (توبنجن) لشعبة الدراسات الفيدية .

المستشرق لودفيج شتير نباخ (نيويورك) لشعبة السنكريستية الكلاسيكية .
المستشرق باشام (من جامعة لندن) لشعبة التاريخ والفن .
المستشرق هرمان برجر (من هايدلبرج) لشعبة اللغويات الهندية الحديثة .
واكتفت الهند لعلمائها ، بمراكز السكرتارية لكل هذه الأقسام والشعب .

كما اكتفت بعضوين اثنين من الهنود « الدكتور همايون كبير : رئيس الدورة والدكتور داندیكار : من جامعة بونا » فى اللجنة الاستشارية للمؤتمر .
أما باقى مستشاريه العشرين ، فكانوا من غير الهنود .

وقد كان كل رؤساء الأقسام العشرة ، فى الدورة الماضية بموسكو ، من علماء الاتحاد السوفييتى .

وأى دولة ، لا يضيرها إطلاقاً أن تدعو عالماً كبيراً ليرأس قسما من أقسام مؤتمر دولى يعقد على أرضها .

ودولية المؤتمر ترتفع به عن هذه النظرة الإقليمية المحدودة ، إلى الأفق الرحب الذى تتآزر فيه جهود العلماء من مختلف الأقطار وشتى الأجناس ، لخدمة البحث العلمى الذى تتماحى فيه هذه الفوارق .

وأرى الهند بهذا المسلك ، قدّمت مثلاً جديراً بشرقنا العريق ، وشهادةً بمدى ما بلغته من أريحية وسعة فى الأفق ونضج فى الشخصية ، يحميها من غرور الادعاء وسذاجة التعصب ، ويؤكد أصالة الروح العلمية فيها ، ميراثاً عتيداً راسخاً تلقته من ماضى تاريخها الحضارى المجيد .

نحن . . وهم :

من بين ألف وأربعمائة عضو ، يمثلون تسعاً وأربعين دولة من شتى أنحاء الدنيا ، كان هناك تسعة أعضاء يمثلون الوطن العربى الكبير بمختلف أقطاره :

عضوان من العراق ، وآخران من تونس ، وواحد من لبنان ، وأربعة من مصر : أحدهم مدعو بصفته الشخصية ، والثانى موفد من جامعة الدول العربية ، وعضوان يمثلان جامعة عين شمس .

وبعملية حسابية بسيطة ، نقسم عدد أعضاء المؤتمر على الدول المشتركة فيه ، فيكون المعدّل المتوسط لكل دولة نحو ثلاثين عضواً .

والوطن العربى ، من الخليج إلى المحيط ، ليس له إلا تسعة أعضاء فقط لاغير .

أى بنسبة عددية أقل من ثلث المعدل المتوسط لدولة واحدة !

ومن بين أربعة وأربعين مراقباً ، أوفدتهم هيئات ثقافية ومراكز إعلامية من مختلف أقطار الأرض ، لم يكن فيهم أى عربى !

وهذا وحده يكفى لتحديد الحيز الذى قررنا باختيارنا أن نشغله هناك ، وبيان الموضع الذى حددناه لأنفسنا ، فى مؤتمر دولى كبير يشغل بقضايا من صميم وجودنا ، وينبش عن عميق جذورنا ، ويكتشف ملامح شخصيتنا عبر التاريخ الطويل .

وهو أيضاً يكفى لنعرف جواب السؤال الذى كان يملأ رحاب المؤتمر ولو لم ينطق به لسان :

أين نحن وأين هم ؟

أين نحن من حقيقة ذاتنا وماضى خطانا على درب الزمن ؟

وأين هم ، من صميم الشرق وأسرار مزاجه وعقليته وجوهر شخصيته ؟

بل أين نحن مما يقولون عنا ، ومما يذيعون من مطوىً تاريخنا وينشرون من

تراثنا ويحفرون عن آثارنا ، وبما يرسمون لنا من صور : بعضها صحيح وإن أعوزته الأصالة والمشاركة الفكرية والوجدانية ، وأكثرها زائف عبث به الهوى والتعصب ، أو مسخه سوء الفهم وقصور الإدراك وخطأ التقدير ؟

يبدو أن لاشيء من هذا عندنا بذى بال !

ويدور الصراع هناك حول أخطر قضايانا ، وتحتدم المناقشة حول عقائدنا وعقليتنا الشرقية ، والمزاج النفسى الذى تمثله آثارنا المادية وتراثنا الروحى والعلمى والأدبى ، وما حملته الأجيال المتعاقبة من هذا كله إلى جيلنا المعاصر .

وقومى بمعزل عن ذلك ، لا يعنيهم الأمر فى كثير أو قليل ، ولسان حالهم ينطق ببيت لشاعرهم « المتنبى » قاله قبل ألف عام :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ

فليقل المستشرقون فينا ما شاءوا .

ولتسهر الدنيا مشغولة بنا ، فى نيودلهى أو فى موسكو أو ميونخ ، أو أمريكا .

وليختصم فينا الخلق من شتى الشعوب والأجناس ، ومن مختلف الملل والنحل والمذاهب . . .

ولنَم نحن ملء الجفون . .

تمثلاً بكلمة شاعر ينفث سحره فى أجيال متعاقبة منا ، ويترك طابعه فى ذوقها وأثره فى وجدانها . . .

وأعجب العجب ، أننا ندرك هذا الأثر ونعترف به ، ونجحد مع ذلك كل ميراث الماضى فينا ، متأثرين بمفهوم خاطئ للعصرية يروجه فينا من يزعمون أنها انفصال باتٌّ عن ماضينا وانبتار حاسم من أصولنا ، وإقامة سد أصم بيننا وبين قديمنا.

وقد تغلغل ذلك القديم فى أعماقنا رضينا أو كرهنا ، وترك فينا طابعه المميز لنا ، به نفترق عن شعوب أخرى تعاصرنا وليست لها شخصيتنا التى تكونت على تعاقب الدهور وتتابع الأجيال !

أجل ، نجحد ميراث الماضى فينا ، فندع للأجانب الغرباء أن يشغلوا به

ويكشفوا عنه ، حتى إذا حاول محاول منا أن يشارك فى شىء من هذا بنشر نص من تراثنا أو بحث فى قديمنا ، أخذته الصيحات من كل جانب تنفى انتماءه إلى عصرنا ، وتنكر عليه أن يعوق دفع التطور بالاشتغال بماضٍ ولّى وراح . . .

• • •

وتسألون : ماذا قالوا عنا فى المؤتمر ؟

وأجيب : لا أدرى !

فيما عدا الذى قيل فى « قسم الدراسات الإسلامية » وهو لا يعدو أن يكون أحد أقسام عشرة للمؤتمر .

فهل يدرى سواى من الزملاء العرب شيئاً مما دار فى الأقسام التسعة الأخرى ، وفيها بحوث أسيوية وإفريقية وسامية ؟

كلا أيضاً !

فيما عدا قسم المصريات الذى كان يرأسه « أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو بكر » أما بقية الزملاء ، فكانوا معى فى قسم الدراسات الإسلامية ، وكنا قلة من بين أعضائه الذين قاربوا المائة عدّاً ، بينهم عشرة يهود من إسرائيل ، وعشرة من الأمريكان ، ومثلهم من الاتحاد السوفييتى . . .

وفيهم من جاءوا من القاهرة وبيروت ودمشق ممثلين لمؤسسات ثقافية أجنبية ، كالجامعة الأمريكية ومعهد الآثار الفرنسى .

ومنهم من جاء من أستراليا ، وتنجانيقا ، وهولاندا .

وكان من الممكن أن نجتمع نحن الأعضاء الثمانية العرب لتنسيق جهودنا ، لكنا وصلنا إلى نيودلهى ليلة انعقاد المؤتمر ، بعد أن تم تسجيل كل منا فى القسم الذى اختاره منفرداً ، دون أن يعرف أسماء زملائه ، والأقسام التى سجلوا فيها ، وموضوعات البحوث التى أعدوها واشتركوا بها .

بل إننا نحن الأربعة المصريين ذهبنا فرادى ، نمثل هيئات أو بالصفة الشخصية ، دون فرصة لقاء أو تفاهم أو تعاون ، فى مرحلة الاستعداد .

لأن الدولة لم تشترك فى مؤتمر المستشرقين الدولى بوفد يمثلها على مستوى الجمهورية ، وهو الوضع الذى كان يضمن تنسيق جهودنا الفردية وتوجيهها ، على النحو الذى شهدتُه فى كل المؤتمرات التى اشتركنا فيها بوفد رسمى ،

فلماذا حُرِم مؤتمر المستشرقين هذه الصفة الرسمية ، وليس أقل أهمية من باقى المؤتمرات؟

سؤال ظل يشغل بالى ، وأنا أرقب وفود الدول الأخرى متآزرة متفاهمة ، ينزل كل وفد منها فى مكان واحد ، ويعقد بين حين وآخر جلسات خاصة لتبادل الرأى وتنسيق الجهد ، فيما يواجه من مواقف .

والأعضاء العرب كل منهم فى حاله ، ولكل منهم برنامجه فى الرحلة ، مستقلاً عن بقية الزملاء .

لا نلتقى إلا اللقاء العابر فى قاعات قصر المؤتمر ، وفى حفلات الاستقبال ، على موائد من تفضلوا بدعوتنا إلى غداء أو عشاء !

* * *

وأخرى ، كانت نتيجة طبيعية لوصولنا ليلة انعقاد المؤتمر . بعد أن تم إعداد برامجه وتأليف لجانه ، وتحديد الأعضاء الذين يشتركون فى نشاطه العام خارج حدود اللجان ، دون أن تتاح لنا فرصة فى هذا كله ، فما كانت لجنة تنظيم المؤتمر لتجازف باختيار أى عضو منا فى هيئات لجانه أو ندواته العلمية التى كانت جزءاً جوهرياً من برنامجه ، وهى لم تتلق منا ، حتى اللحظة الأخيرة ، ما ألحت فى طلبه من تحديد موعد وصولنا ، وتأكيد اشتراكنا الفعلى فى المؤتمر .

وتتابعت رسائلها إلينا ، ونحن لا نملك أن نجيب ، لأن إجراءات سفرنا لم تتم إلا فى يوم السفر ذاته ، والمؤتمر على وشك الانعقاد ! باستثناء « الأستاذ الدكتور عبد المنعم أبو بكر » الذى سافر قبل انعقاد المؤتمر بخمسة أيام ، ليتسلم درجة "الدكتوراه الفخرية من جامعة نيودلهى" فأخذ مكانه عضواً فى اللجنة الاستشارية للمؤتمر . ورئيساً لقسم الدراسات المصرية .

* * *

وكان فى برنامج المؤتمر ندوتان ثقافيتان :

إحداهما عن "دَوْر دراسات الاستشراق فى الإنسانيات" برياسة الأستاذ « همايون كبير » رئيس الدورة .

والأخرى عن "التعديلات الحديثة فى تشريع الأحوال الشخصية للمسلمين" برياسة « الدكتور شرى شاجلا وزير التعليم الهندى »

اشترك فيها الأساتذة « مولانا سعيد أحمد أكبر أبادى ، وشيرى فضل الرحمن ، وخواجه محمد أحمد ، والدكتور حسين ناصر (إيران) والسفير التركى سيف الله أسين ، والمستشرق أندرسن .

وقدَّرت لجنة التنظيم أهمية اشتراك الدول العربية فى هذه الندوة ، فدعت سفيرنا بالهند « السيد أحمد حسن الفقى » ليتحدث عن تشريع الأحوال الشخصية بمصر ، وما أدخل عليه من تعديلات .

وكان محضَ اتفاق أن يكون السيد السفير متصلاً بهذا الموضوع الدقيق ، وعلى دراية به ، بحكم نشأته فى بيت دين ، مما أتاح له أن يدرس تشريع الأحوال الشخصية فى نصوصه المعدلة بقانون بعد قانون .

ولولا هذا الاتفاق المحض ، لما كان من المستطاع أن تشترك مصر ، بسفيرها ، فى الندوة ، ولتركْنا المجال كله للهند وإيران وتركيا والمستشرق أندرسون ، دون أن يسمع أىُّ صوتٍ لعربى مسلم !

* * *

وكان فى برنامج المؤتمر أيضاً ، إقامة معرض عام لنوادر المخطوطات والذخائر التى نُشرتْ من تراث الشرق والإسلام ، والمؤلفات المتصلة ببحوث الاستشراق .

اشتركت فيه وفود وهيئات شتى ، من شرق وغرب ، ولم يشترك فيه أى قطر عربى !

من الهند : اشتركت ثلاث هيئات أكاديمية ، وسبعة مراكز ثقافية ، وخمس دور للنشر .

ومن ألمانيا ، فى الشمال الأوربى ، جاءت معروضات من مراكز الاستشراق .

ومن أقصى الغرب الأمريكى ، جاءت معروضات مركز البحوث اللغوية فى « واشنطون » واتحاد الدراسات الأسيوية فى « ميتشيجان » .

ومن الاتحاد السوفييتى ، جاءت معروضات مما نشرته معاهد الاستشراق فى موسكو ولينتجراد وطشقند ، برعاية المجمع العلمى السوفييتى .

. . . . . .

ونحن . . . لسنا هناك .

ما من أثرٍ فى المعرض ، يعلن عن وجود الشرق العربى فى الميدان ، فيما عدا ما قدمته بعض دور النشر الهندية من مترجمات أُردية لبعض مؤلفاتنا فى الإسلام[1] !

وكل ما فى المعرض متصل بصميم وجودنا .

وفى هذا أيضاً ، سهر الخلق مشغولين بنا ، ونمنا نحن ملء الجفون ، مخدرين برُقيةٍ نفثها ذلك « المتنبى » فى وجداننا منذ أكثر من ألف عام :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جرّاها ويختصمُ !

---

(١) كانت مفاجأة لى ، أن أرى هناك كتابين لى ، من مجموعة تراجمى لسيدات بيت النبوة : "السيدة زينب ، والسيدة سكينة بنت الحسين" معروضين هناك فى ترجمتيهما الأردية والفارسية .

وبلغ من عزلتنا الثقافية إن لم أكن رأيتهما من قبل !

تجربة وامتحان :

كانت هذه الدورة لمؤتمر المستشرقين الدولى ، أول دورة له تعقد فى بلد شرقى حر .

تجربة أولى واجهتها الهند ، لتحتمل عبئها الصعب . . .

والمؤتمر قديم وعريق ، يحمل تاريخه تجارب خمس وعشرين دورة سابقة ، تنقل فيها بين عواصم أوربا ، وأغنت رصيدَه خبراتٌ وجهود لدولٍ تتنافس على المراكز القيادية لعالم اليوم .

وبهذا الرصيد اتجه المؤتمر إلى الهند ، وهو يرقب مصير التجربة بحساسية بالغة ، واستعداد يقظ لالتقاط أخفى المآخذ وتسجيل أهون الأخطاء .

وذهب ممثلو الدول التسع والأربعين ، ومعهم مائة وأربعة وأربعون من المراقبين ، موفدين من شتى هيئات الثقافة ومراكز الإعلام . ومن هؤلاء كثرة غالبة تمرست بالمؤتمرات الدولية وشهدت دورات سابقة لمؤتمر المستشرقين ، فى دول غربية عظمى .

ذهبوا بعيون مفتوحة وحس نقدى مرهف ، يسيطر عليهم جو التطلع والترقب ، وكأنهم مدعوون لشهود امتحان مثير ، يؤديه هذا الشرق أمام الغرب ، على مرأى ومسمع من ذلك الجمع الحاشد ، تتنازع أفراده عاطفتان مختلفتان :

الشرقيون منهم يواجهون التجربة بوجدان مشترك ، يخفق بلهفة الرجاء ويتوهج بحرارة التجاوب .

والغربيون يغلب عليهم شعور من الزهو والتفوق ، توارى خلف قناع من المداراة وبرود اللامبالاة .

وبدوا كأنهم جميعاً يقومون بدور المراقبين .

وبدونا كأننا جميعاً ، نؤدى الامتحان مع الهند ، وإن احتملتْ وحدها العبء ، واختيرت لتمثل الشرق كله فى الموقف الصعب .

وكانت قد استعدت له منذ وقت غير قصير :

فى منتصف سنة ١٩٦٢ ، قبل انعقاده دورة المؤتمر بعام ونصف عام كانت ، لجنة التنظيم قد أُلفت ، وبدأت تعلن عن وجودها على المستوى العالمى ، بتوجيه الدعوات إلى الهيئات والأشخاص المشتغلين بتراث الشرق .

ومن ذلك الوقت ، تتابعت نشرات اللجنة ، معلنة عن الجهد المبذول استعداداً للدورة .

وقبل أن يحل موعد المؤتمر بنصف عام ، كان كلٌّ مدعوٍ منا قد حدد القسم الذى اختاره ، وعين البحث الذى يعده ، وعرف اسم عضو لجنة التنظيم ، المشرف على مكاتبات القسم .

وحُدد منتصف شهر أكتوبر من سنة ١٩٦٣ ، آخر موعدٍ لتلقى خلاصات البحوث المعدة للمؤتمر .

وفى شهر نوفمبر ، كان البرنامج العام قد وزع على الأعضاء فى أنحاء الدنيا مرفقاً ببيان دقيق عن الفنادق ومستوياتها وأسعارها . ولائحة الجمارك الهندية ، وأسعار العملات المختلفة فى التبادل الرسمى ، وجو الهند فى فترة انعقاد المؤتمر ، سواء فى مقره بنيودلهى ، أو فى المناطق السياحية بالشمال والجنوب .

ومع البيان ، بطاقتان يضعهما العضو على حقائبه ، ليكون بهما موضع عناية وتكريم .

وكان هذا الاستعداد كفيلاً بأن يبعث الطمأنينة إلى نفوسنا ، نحن الشرقيين الذين نواجه مع الهند تجربة الامتحان .

ومن المطار تلقانا مندوبو المؤتمر ، ومروا بنا — فى طريقنا إلى الفنادق المحجوزة لنا — على مقر انعقاد المؤتمر لنسجل حضورنا ونستلم حافظة الأوراق الخاصة بكل منا .

وكانت مفاجأة لأكثرنا ، أن نجد فى « نيودلهى » قصراً خاصاً بالمؤتمرات . هو « قصر المعرفة : Vigyan Bhavan » بُنى على أحدث طراز ، وزُوِّد بكل مايمكن أن يخطر على البال من وسائل العمل والراحة .

فى بهو الاستقبال أماكن منظمة لخدمة الأعضاء موزعين عليها حسب أرقام

عضويتهم ، بحيث يعرف كل عضو أين يجد ما يصل إليه من بريد ودعوات ومطبوعات ، والنشرات الدورية للمؤتمر .

ويفضى البهو ، من الأمام ، إلى القاعة الكبرى الرئيسية ، ويفضى من الجانبين إلى مكاتب البريد والبرق والتليفون والمصرف ، وقاعات الاستراحة ، والمكاتب المخصصة لرؤساء اللجان وسكرتارية المؤتمر . وفى الدور العلوى قاعات رحبة ، أعدت لتكون معارض للكتب ، والمخطوطات ، والفنون ، والآثار ، ونماذج مختارة للصناعات الهندية .

وفى الدور الأرضى ، قاعة كبرى فخمة للطعام ، تتسع لكل هذا الجمع ، ويقوم بالخدمة فيها جهاز مدرب على أعلى مستوى .

وهنا وهناك ، ينتشر الأدلاء والتراجمة يحملون على صدورهم شارة مميزة ، ويؤدون عملهم بروح عالية ويقظة تامة . وفيهم سيدات وآنسات ، فى زيهن القومى ، يضفين على المؤتمر جو الشرق الأصيل العريق ، بكل سحره وسره .

وعلمتُ أن هذا الجهاز الإدارى كله جهاز دائم ، أعنى أن أفراده يعملون فى قصر المعرفة ، المخصص للمؤتمرات ، بصفة مستمرة . على استعداد متصل لاستقبال الوفود لأى مؤتمر يعقد فى عاصمة الهند ، دون أن يُترك الأمر لفوضى الارتجال وحيرة البحث عن مرافقين وأدلاء وموظفين ، يُلتقطون من هنا وهناك بصفة عارضة مؤقتة ، ويُكلفون بالعمل الطارئ بلا تدريب أو إعداد ، ودون اختبار لمدى صلاحيتهم لاستقبال الوفود ، وأهليتهم للمهمة الخطيرة ، من حيث هم ممثلون لبلدهم أمناء على سمعتها ، بسلوكهم وثقافتهم ، وخبرتهم على المستوى الدولى .

تلك كانت الجولة الأولى للمؤتمر .

وقفت حيالها أسترجع ذكرى مؤتمرات لنا ، تعقد فى أماكن مستعارة ، فتُقحم على الجامعات أو دور الهيئات الثقافية أو قاعات المجالس المحلية .

ويندب لها موظفون ، معارون كذلك ، من شتى الدواوين ، ومجموعون جمعاً لمَّا لقضاء المهمة الطارئة على أى وجه ومستوى !

* * *

وتتابعت الجولات واحدة إثر أخرى . والهند تواجهها بكل ما فى طاقتها من جهد سخى باذل ، عن إدراك عميق لأهمية الموقف ، ووعى كامل لمسئوليته .

* * *

وأصبحنا يوم افتتاح المؤتمر ، وكان المقرر أن يفتتحه الرئيس « الدكتور رادا كريشنان » .

وتوقعنا أن تكون كلمته مجرد تحيـــة رسمية تقليدية ، يرحب فيها بضيوف الهند ويرجو لهم النجاح وطيب المقام . وقدّرنا لكلمته خمس دقائق أو عشراً . . .

لكن الرئيس اشترك فى المؤتمر بمحاضرة خصبة ، ألقاها نيابة عنه « الأستاذ همايون كبير رئيس الدورة » واستغرقت ساعة كاملة .

بحث فى التاريخ الحضارى والروحى للهند ، وميراثها منه عبر آلاف من السنين ، تفاعل خلالها مع ما طرأ على الهند من حضارات وافدة ، مطلاً بنا ، فى محاضرته ، على الأفق الإنسانى الرحب ، حيث تلتقى جهود البشرية من مختلف الأجناس وعلى تتابع العصور ، وتغدو تراثاً مشتركاً للإنسان .

وحيث تلتقى الروافد من شتى المناطق ، تصب فى النبع الكبير خلاصة تجارب الشعوب العريقة فى الحضارة ، والجديدة المحدثة .

وكان « الدكتور ، الرئيس رادا كريشنان » فى محاضرته ، فيلسوفاً معلماً وشاعراً ملهماً ، تتجلى فكرته فى فيض من نور الإيمان بإنسانية البشر ، وتخايله رؤى باهرة لعالم تتماحى فيه الفوارق بينهم ، فيرتل فينا « نشيد الإنسان » فى خشوع ومهابة وجلال :

تقابلوا معاً ، وتحادثوا معاً
ولعل عقولكم تلتقى
فى تفاهم ومودة وقربى
ولتكن أفكاركم وعواطفكم وأمانى قلوبكم
نابعة من ضمير الإنسان
ومتجهة إلى الخير العام
وعلى الطريق ، سيروا معاً
نحو وحدة البشر »

وفى نشوة الانفعال بالنشيد المثير ، توجهنا إلى القصر الجمهورى حيث كان فى استقبالنا السيد « الدكتور ذاكر حسين نائب رئيس الجمهورية » — ورئيسها بعد راداكريشنان — ليتدارس ، معنا قضايا الاستشرق ، ثم يودعنا على موعد للقاء معه فى بيته ، ثم فى دار سفيرنا بالهند ، لنتابع الحديث فى موضوع الفكر الإسلامى المعاصر ، وماذا يستطيع أن يقدمه إلى الإنسانية من قيم عليا ، فى العدل الاجتماعى والأخوة البشرية .

وعدنا إلى قصر المؤتمر ، لنلتقى فى جلسة المساء بالرئيس نهرو ، وكانت الأنباء عن حالته الصحية قد شغلتنا ، فتوقعنا أن يعتذر .

لكنه أصر على لقائنا ، ليحاضرنا فى الأحداث الكبرى التى تشغل عالم اليوم ، ويهيب بالعلماء أن يجاهدوا لإنقاذ العالم مما يكابده من حدة التوتر ، وما يروعه من مآسى التفرقة العنصرية والصراع الدامى بين المذاهب والعقائد .

ونسى « الرئيس نهرو » صحته وشواغله ، لكى يحمل نصيبه من العبء الذى اضطلعت به الهند لينجح المؤتمر ، وجاء يعلن دعاء السلام ، وينيط بالعلماء رجاء كبيراً فى تحرير الإنسان من شر الأثرة ولعنة الحقد والتعصب ، ونكبة تسخير العلم للتخريب والتدمير .

* * *

وفتحت الهند قلبها الكبير لضيوفها ، فكان لشارة المؤتمر على صدورهم أثر يشبه السحر ، فى كل من لقينا من عامة الشعب .

وبدا كأن كل فرد هناك ، من رئيس الجمهورية إلى أبسط عامل ، يعد نفسه مسئولاً عن نجاح المؤتمر .

وانعكس الوضع :

فلم يعد الشرق يؤدى امتحاناً أمام هذا المؤتمر للمستشرقين ، وإنما صار المؤتمر نفسه فى موضع الامتحان .

ليثبت طاقته على التسامى بالعلم إلى أفقه الإنسانى متجرداً من ضغائن العصبية .

وليكشف عن مدى استجابته لنشيد الإنسان ودعاء السلام .

وكان امتحاناً صعباً ، علينا وعليهم :

علينا نحن الشرقيين الذين دخلنا المؤتمر بحساسية مرهفة نحو التجربة الأولى التى فرضت علينا أن نقف موقف الاختبار .

وعلى الغربيين الذين جاءوا مزهوين بعقدة التفوق التى فرضت عليهم أن يقفوا موقف الرقيب الفاحص .

وقد انفض المؤتمر ، وأقصى ما وصل إليه من نجاح فى التسامى إلى الأفق الإنسانى . أنْ بذل جهد المحاولة فى حدود طاقته ، دون أن يبلغ بها المدى المرجو من التجرد .

ولا أبرئ نفسى من قصور ، فقد أعيانى فى الواقع أن أنسى انتمائى إلى الشرق .

ومعذرة إلى ذكرى الدكتور رادا كريشنان والرئيس نهرو ، والرئيس ذاكر حسين فما زلت حتى اليوم أكتب ما أكتب عن المؤتمر فأقول :

شرق وغرب . . . ونحن وهم !

بعض ما قالوا هناك :

قلت إن تجربة انعقاد المؤتمر للمرة الأولى فى بلد شرقى حر ، قد واجهتها الهند بأقصى ما فى طاقاتها من جهد سخى ، عن إدراك عميق لأهمية الموقف ، ووعى كامل لمسئوليته .

دون أن أعنى ، من قريب أو بعيد ، أن نجاح الدورة من حيث دقة التنظيم وكفاية الاستعداد وكرم البذل ، يدخل فيه الحكم بنجاحه من الوجهة العلمية الموضوعية .

فلهذا حديث آخر ، أحاول أن أعرض لجانب منه ، فى نطاق قسم الدراسات الإسلامية الذى اشتركت فيه وشهدت جلساته وأصغيت إلى ما ألقى فيه من كلمات ، وقرأت ما قدم إليه من بحوث .

راجية مع هذا ألا يؤخذ حديثى عنه مأخذ التعميم ، وهو لا يعدو أن يكون قسماً واحداً من أقسام عشرة ، لا علم لى بما جرى فى غيره منها .

سجلّت قائمة البحوث المقدمة إلى قسم الدراسات الإسلامية خمسة وتسعين بحثاً . وهو أعلى رقم فى الأقسام كلها ، باستثناء قسم الدراسات الهندية .

ولم ندر فى الواقع كيف يمكن أن تتسع جلسات عشر ، لتقديم خلاصات لأكثر من تسعين بحثاً ، مهما تبلغ من تركيز وإيجاز . حتى أعلن رئيس القسم المستشرق الأمريكى «الدكتور ولفريد سميث» فى مفتتح الجلسة الأولى ، أنه لا يجد أمام ضخامة عدد البحوث وضيق الوقت ، إلا أن يحدد لكل عضو منا ربع ساعة فقط لتقديم خلاصة بحثه ، ومناقشته فيه .

* * *

وكان سؤال : ماذا لو استنفد المتحدث ربع الساعة ، فى إلقاء كلمته ؟ وأجاب « الدكتور سميث » ببساطة وحسم : إذن لا تكون مناقشة .

ولعل هذا يعطى فكرة عن حدود المجال الضيق المتاح للمناقشة ، إذا قدرنا أهميتها ، وقدرنا كذلك ما لابد أن يكون من تفاوت المستوى بين البحوث ، وما هى

مظنة التعرض له من خطأ أو قصور أو انحراف ، فى مجال دقيق صعب كالدراسات الإسلامية .

وأدخل فى صميم الموضوع ، لأعرض بعض ما قالوا هناك .

وأتجاوز عمداً عن بحوث ستة قدمها يهود من إسرائيل ، جاءوا إلى المؤتمر ، من أورشليم وتل أبيب ليتحدثوا بكل جرأة عن الإسلام والمسلمين ، مستبيحين حرمة تاريخنا ، على امتداد الزمان والمكان ، كما استباحوا حمانا فى المناطق المغتصبة من بلاد العرب .

* * *

كان الموضوع الذى شغلنا هناك ، فى حدود ما أعرف ، هو « القرآن الكريم » سواء فى الجلسات الرسمية للدراسات الإسلامية ، أو فى المجالس والندوات الخاصة والمحادثات الحرة التى أتيح لى أن أشارك فيها .

وقد يكون غيرى من الزملاء العرب شُغلوا بموضوعات أخرى ، لكنى ما شهدت مجلساً هناك إلا كان هذا الموضوع هو مدار حديثنا ومناط اهتمامنا :

المستشرقون يعنيهم أن يتتبعوا ما يظهر من جديد فى مجال تفسير القرآن ، ليعرفوا كيف يفهم المسلمون اليوم كتاب الإسلام .

والمسلمون من غير العرب ، يعنيهم أن يدركوا قيمة التراجم القرآنية التى يقرأون فيها كتاب دينهم ، بغير لغته التى نزل بها .

* * *

والحق أن الموضوع لم يُقدم فيه رسمياً سوى عشرة بحوث ، هى :

— القرآن الكريم ومشكلة الترادف اللغوى ، وهو الموضوع الذى اشتركتُ به رسمياً فى المؤتمر .

— الترجمة الإنجليزية للقرآن ، والحروف الغامضة فى فواتح السور : قدمها الدكتور هاشم أمير على ، من نيودلهى .

— بحث فى التفسير الحديث : قدمه أرنولد ليو ، من كلية سان جوزيف فى بيروت .

— الكفر والشرك والطغيان ، فى القرآن : قدمه المستشرق « ت ب إيرفنج » من الولايات المتحدة .

— التقدم الإنسانى والقيم القرآنية : للأستاذ شرف الدين عبد الصمد . من عليكرة .

— فكرة الألوهية فى القرآن ، فى ضوء شروح مولانا آزاد : قدّمه الأستاذ محمد مرتضى صديقى ، من حيدر آباد[١] .

لكن « القرآن الكريم » مع ذلك ، فرض علينا أهميته واستأثر بالقدر الأكبر من تفكيرنا ومناقشاتنا .

وإذا كانت الموضوعات الأخرى قد أخذت نصيبها من الاهتمام فى الجلسات الرسمية ، فقد بقى الوقت الحر لحلقات بحث ومدارسة ، يجذب أكثر الأعضاء حول هذا الموضوع الذى يستأثر باهتمامهم .

* * *

ذكرت أن قائمة البحوث المقدمة إلى قسم الدراسات الإسلامية سجّلت خمسة وتسعين بحثاً ، وهو أعلى رقم فى الأقسام كلها باستثناء الدراسات الهندية .

وأحاول هنا أن أعرض صورة مجملة لما كان هناك ، عن طريق ما قدمه « الدكتور هاشم أمير على » من كلام فى فواتح السور ، وترجمة إنجليزية لبعض سور من القرآن الكريم . لتخصصى فى الموضوع من ناحية ، ولعلمى بما للدكتور هاشم من نفوذ بالغ ، لدى من يتصلون عن طريقه بكتاب الإسلام ، فى اللغة الإنجليزية .

وكانت دعاية واسعة قد سبقت الجلسة التى تحدث فيها ، وقدمته إلينا حجة فى القرآن الكريم باللغة الإنجليزية . وتلقى كل الأعضاء هدية من الدكتور قامت

---

(١) وجاء يهود من تل أبيب ، ومن أورشليم ، يتحدثون عن مثل :
— عبد القادر الجزائرى وعبد الكريم وأثر الإسلام فى حركتهما .
— الحياة اليهودية فى كريت فى ظل الحكم الإسلامى .
— موالى الخلفاء العباسيين والحدود الإسلامية
— دراسة للعربية الوسطى من النصوص المسيحية . .

سكرتارية القسم بتوزيعها علينا : نسخةً من كتاب ألّفه ، فى ترجمة وتفسير خمس عشرة سورة من « جزء عم » .

* * *

وعنوان مقاله ، المقدم إلى المؤتمر بالإنجليزية :

The Mystrious letters of Quran.

وقد وُزع علينا قبل إلقائه ، خمس ورقات باللغة الإنجليزية ظننتها خلاصة للبحث ، لكنى لم أجد بينها غير ورقة واحدة تتصل بالموضوع ، أما الأربع الباقيات فإعلان عن ترجمته الإنجليزية لسور من القرآن ، مع مقتطفات منقولة من تقريظ لهذه الترجمة فى صحف ومجلات هندية وإنجليزية وأمريكية .

والورقة الوحيدة المكتوبة عن فواتح السور ، اقتُطِع منها هامشٌ للتعريف بالدكتور هاشم أمير على ، نقرأ فيه أنه :

« نال درجة الدكتوراة فى الإسلاميات من جامعة كورنيل

وحضر حلقة الدراسة الإسلامية فى بريستون سنة ١٩٥٤

وهو صاحب ترجمة القرآن التى نشرت فى نيودلهى ولندن ونيويورك ، بعنوان قرآن الطالب "The Student's Quran" .

وعميد معهد الدراسات الإسلامية العليا ، للجمعية الملية الإسلامية فى نيودلهى . »

وإنما أنقل كل هذا ، قصداً إلى بيان مركز الباحث ، ونوع ثقافته ، ومدى شهرته ، واهتمام دور النشر به ، لكى يعرف قومى ما يتاح لكلامه عن كتاب الإسلام ، من ذيوع وانتشار .

وقد قرأت ورقته عن فواتح السور ، قبل أن يلقى كلمته .

وكل ما فيها ، مقدمة تقول إن القرآن يستهل بحروف "الم" — يعنى سورة البقرة — ثم تتابع سور عددها تسع وعشرون مفتتحة بهذه الحروف الغامضة التى أعيا القدامى أن يفهموها حتى اهتدى الدكتور هاشم إلى حلٍّ لهذه المشكلة التى لبثت تنتظره أربعة عشر قرناً بغير حل .

ثم تُقدم الورقة الحلَّ فى فقرة واحدة تقول ما ترجمته :

إن هذه الفواتح الغامضة جاءت متلوة بسياق المخاطَب فى كل السور بلا استثناء ومن ثم يمكن فهمها على أنها نداء للنبى . بحيث لو وضعنا « يا محمد O. Muhammed » مكانَ كل هذه الفواتح لانجلى الموقف وحُلت المشكلة .

ويستطرد الدكتور هاشم فى ورقته قائلاً : إن هذه الفواتح تشترك فى ظواهر منها :

أنها جميعاً بلا استثناء فى سياق المخاطب .

وهى جميعاً لا تؤثر على معنى النص فيما يليها .

وأن خمساً وعشرين سورة من التسع والعشرين المفتتحة بهذه الحروف الغامضة ، نزلت فى العهد المكى المتأخر حين كان النبى منبوذاً Ostracised من قومه وفى حاجة شديدة إلى التأييد .

وأضاف : إنه لا حاجة بنا إلى الوقوف عند الدلالة الأصلية لهذه الحروف ما دامت لا تؤثر على فهمنا للسياق بعدها ، بإحلال « يا محمد » مكانها ، ولا تعطى أى مغزى آخر وراء ذلك ، والنبى لم يكشف لأصحابه عن حلها ، ربما عن تواضع !

* * *

ووقفتُ عند الدليل الذى قدمه « الدكتور هاشم » وهو أن كل السور المبدوءة بهذه الحروف الغامضة ، تأتى الآيات التالية للفواتح فيها فى سياق الخطاب — لمحمد صلى الله عليه وسلم — ثم رحت أسترجع فى ذهنى ، الآيات الأولى من سور :

العنكبوت ، الروم ، لقمان ، ص ، غافر ، الزخرف ، الجاثية ، الأحقاف ، ق ، يونس . فإذا سياق الآيات . للفواتح فيها ، ليس خطاباً مباشراً للنبى صلى الله عليه وسلم . اللهم إلا أن يعنى السياق العام .

والقرآن كله ، لا هذه السور وحدها ، قد نزل وحياً إلى المصطفى ، وخطاباً له .

وما قاله عن نزول خمس وعشرين سورة من ذوات الفواتح ، فى أواخر العهد المكى ، والأربع الباقيات مدنيات ، ينتقض كذلك ، إذا ذكرنا أن عدد السور المكية كلها فى المصحف ، سبع وثمانون سورة : فإذا اعتبرنا المتأخر منها ما بعد السبعين ، لم نجد فى السور المفتتحة بالحروف غير أربع فقط مما يمكن عده من

متأخر السور المكية . وهذه الأربع على التحديد : "إبراهيم ، والسجدة ، والروم ، والعنكبوت ."

أما باقى السور المكية المفتتحة بالحروف المقطعة ، فمنها ما يقع فى ترتيب النزول ، فى الثلث الأول من العهد المكى . بل منها كذلك سورة القلم وقد نزلت آياتها التسع والأربعون الأولى ، بعد سورة العلق مباشرة ، أول سورة نزل بها الوحى !

• • •

واستحضرتُ ذلك كله فى بالى ، استعداداً لمناقشة الدكتور هاشم فيه بعد أن قام يلقى كلمته ، وفى حسابى أنها لن تستغرق أكثر من خمس دقائق ، إذا افترضنا أنه بحيث يقرأ كل ما جاء فى ورقته المكتوبة عن فواتح السور . لكنه أمضى عشر دقائق يزكى ترجمته للقرآن ، ويحصى ما سبقها من تراجم بالإنجليزية ، مؤكداً أن ترجمته تفضلها جميعاً . ثم استنفد الدقائق الخمس الباقية له ، فى كلمة عن فواتح السور لم يضف بها جديداً إلى ما قرأناه عنها فى ورقته .

وهكذا لم يترك لنا دقيقة لمناقشته .

وانتظرت حتى انتهت الجلسة ، فتعرضتُ له بالسؤال عما قال فى فواتح السور ، فكانت المفاجأة أن التمس منى محادثته بالإنجليزية لأنه لا يعرف العربية !

سألته : تقول إنك جئتَ بأفضل ترجمة للقرآن الكريم ، وأنت لا تعرف لغته ؟

فتبسم ضاحكاً من قولى وهو يسأل بدوره :

— وهل القرآن للعرب وحدهم !

أجبت : كلا ، بالتأكيد . ولكن أنْ تترجمه وأنت لا تفقه لغته ، أمر غريب حقّاً !

قال : فلنؤجل هذه المناقشة ، إلى أن تطلعى على الترجمة ، لأرى ما إذا كنت تنكرين منها شيئاً .

وقلت على الفور :

قد فعلت ، ألقيت نظرة سريعة على ترجمتك التى أُهديتْ إلى كل الأعضاء قبل الجلسة ، وأنكرتُ منها الكثير .

فسألنى : مثل ماذا ؟

وأجبت : مثل ترجمتك للكافرين ، بذوى الإيمان القليل : With little faith وترجمتك « لا ريب فيه » بـ : لا صدع ولا ثغرة ، وترجمتك « الذين يؤمنون بالغيب » بالذين يعتقدون بلا ريب . . . .

ولم يبد عليه أنه يفهمنى .

ولم يبد لى أن المضى فى مناقشته يجدى !

* * *

وأدع ترجمته للقرآن إلى حين ، لأقول هنا إن مقال الدكتور هاشم ، وعشرات أخرى من كلمات الأعضاء ، مرت بغير مناقشة .

والمؤتمر بمثل هذا الوضع الذى حشد فى جلسات عشر ، خلاصات لما قدمه أعضاؤه الذين قاربوا المائة عدًّا ، أضاع الكثير من جوهر أهميته بإهدار فرصة المناقشة التى تمحص ما يعرض من آراء ، فنصحح أو نستدرك عليها ، أو نضيف إليها مما لدى الدارسين المتخصصين .

وإلا فأى جدوى فى أن نجلس مستمعين لما يلقى علينا ، دون أن نملك سؤالاً ولا ردًّا ؟

ولقد كان أمام القسم ، بحثان على طرفى نقيض :

بحثى فى « القرآن الكريم ومشكلة الترادف اللغوى » فى ضوء التفسير البيانى ، وواضح فيه أننا لا نستطيع أن نفسر اللفظ القرآنى بآخر مما يبدو مرادفاً له ، دون أن يفقد اللفظ سر دلالته فى سياقه القرآنى ببيانه المعجز .

وفى الطرف المقابل ، وقف الدكتور هاشم يعلن غبطته وزهوه بتقديم أفضل ترجمة إنجليزية للقرآن . ثم نفاجأ بأنه يجهل العربية ، ويعيبه أن يفهم من يخاطبه بها!

وما أبعد ما بين الموقفين :

يعيبنى ، والعربية لغتى والنص القرآنى موضوع تخصصى ، أن أفسر لفظاً منه بآخر من مادته ، أو بمرادف له فى معاجمنا اللغوية .

ويهون على الدكتور هاشم ، أن يترجم هذا النص إلى الإنجليزية ، وليس له أدنى معرفة بلغة القرآن !

وموقفه ، قد يبدو فى ظاهره غير شاذ ، فليس الدكتور هاشم بأول من نقل نصاً من لغة لا يعرفها ، مترجماً إلى لغة يجيدها . والغرب قد اتصل بتراث أرسطو عن طريق التراجم العربية له ، وأكثر ما لدينا من نصوص إغريقية وهيروغليفية ، قد نقل إلينا عن طريق تراجمها إلى اللغات الحديثة .

لكن الشذوذ بدا فى أوج حدته ، تجاه الذى عرضتُه على المؤتمر — فى نفس الجلسة الذى ألقى فيها الدكتور هاشم كلمته — من دراسةٍ لموقف البيان القرآنى من الترادف اللغوى !

ومرت كلمة الدكتور فى القرآن الكريم بغير مناقشة .

لكن التناقض بين الموقفين ، أثار موجة من القلق والحيرة والتساؤل ، اندفعت من قاعة الجلسة ، إلى خارج جدران قصر المؤتمر « فيجيان بهافان » فشغلتنا حيث التقينا ، فدار الحديث فى كل مجالسنا الخاصة ، حول ترجمة القرآن إلى لغة أجنبية .

ولم نختلف على أن الترجمة لا تكون إلا لمعانى القرآن ، كما لم نختلف على أن أى ترجمة لهذه المعانى ، مهما تبلغ من الدقة والصحة ، لا يمكن أن تجلو أسرار دلالاته فى إعجازه البيانى .

إنما الذى أهمنا حقاً ، أن جمهرة الذين قاموا بالترجمة ممن لا يؤمنون عليها من غير المسلمين ، كانت ترجماتهم تقابل بالحذر ، وتُتلقى بالحرص اليقظ لما يُظن بهم من انحراف وتعصب .

وهذه ترجمة يقدمها شرقى مسلم ، ليس مظنة اتهام . . .

فإذا كان يجهل العربية ، فإنه يحتكم فى توجيه النص القرآنى بما يأخذ عن الترجمات الإنجليزية . ويقدمه بهذا الوضع الشاذ ، إلى مئات الملايين من المسلمين ، غير العرب ، ليأخذوا عنه تأويل كتاب دينهم ، ويحدد فهمهم له !

والدكتور هاشم ليس مترجماً مسلماً فحسب ، ولكنه يتجاوز الترجمة إلى التفسير ، ومن ثم يعم خطؤه وينتشر ، ويؤثر فى أجيال من القراء ممن يطالعون هذا

التفسير المطبوع فى أكبر دور للنشر بلندن ونيويورك ونيودلهى ، والموزع على أوسع نطاق . .

ولنأخذ مثلاً : تفسيره لكلمة الوحى الأولى « اقرأ » فى آية العلق :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » .

بدأ الدكتور هاشم فترجمها بلفظ Call ، أى ادعُ ونادِ . ثم مضى يفسرها فقال ما ترجمته الحرفية :

« إن فعل الأمر اقرأ Call ، يجانس من قرب الكلمة الإنجليزية صاح "Cry" وهى هنا كأنها قرع الطبل . وتحمل الكلمة أيضاً معانى الأمر : بالدعاء ، والإعلان ، والإشهار ، والإعلام ، والتعليم ، والتبشير » .

وقد يبدو عجيباً أن المفسر لم يجد وهو يسوق كل هذا الحشد من التأويلات للفظ "اقرأ" مكاناً لما يقابلها بالإنجليزية Read وهو أول لفظ يخطر على البال فى ترجمة ، اقرأ .

ولكن العجب يزول ، حين نمضى معه فنطالع ما جاء به من توجيهٍ لآية الوحى الأولى فيما ساق من تأويلات .

فى الفقرة التالية مباشرة ، ذكر أن هذا الأمر بالصياح "Cry" موجود فى « العهد القديم » خطاباً للنبى أشعياء ، قبل القرآن بنحو ثلاثة عشر قرناً .

واستشهد لهذا بترجمة لآية من سفر أشعياء ، رجعت إليها فى « العهد القديم » فإذا نصها فى أول الإصحاح الثامن والخمسين من السفر :

« نادِ بصوت عالٍ ، ارفع صوتك كبوق ، وأخبِرْ شعبى بتعديهم ، وبيتَ يعقوب بخطاياهم » .

فهل يجد من لهم أدنى معرفة بالعربية ، أى شبَه بين هذه العبارة من العهد القديم ، وبين الآية القرآنية الأولى :

« اقرأ باسم ربك الذى خلق » ؟

أو هل فيهم من يلمح أى وجه للتنظير بين سِفر أشعياء وآية العلق ؟

ثم ماذا بعد هذا الربط ؟

بعده أن الدكتور هاشم استطرد يتحدث عما « كان يشغل محمداً صلى الله عليه وسلم لسنوات قبل المبعث ، من تفكير فى حال قومه : وما كان يحضر فى ذهنه دائماً من قصص قدامى الرسل ، للعرب واليهود والمسيحيين ، وكيف جذبوا أتباعهم من الضلال ، فهل يقدر له أن يفعل مثل ذلك ويسلك فى صف أولئك الرسل ؟

أو بنص عبارة الدكتور :

Ever present in hids mind, the stories of old prophets among the Arabs, the Jews & the christions ...

من هذه العبارة يتضح وجه الربط بين أول الإصحاح الثامن والخمسين من سفر أشعياء ، وبين آية الوحى الأولى .

ومحمد صلى الله عليه وسلم قد أطال التفكير حقًّا قبل المبعث ، فى حال قومه وما كانوا عليه من ضلال .

وحقًّا كذلك ، جاء القرآن الكريم مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل ، لكن ليس على هذا النحو من شطط التأويل واعتساف الملحظ وتحميل اللفظ القرآنى « اقرأ » ما لا يحتمله من صياح وقرع طبول ، لكى يرتبط بصوت كالبوق فى آية من سفر أشعياء ، وليس بينهما أى شبه ، لفظاً أو سياقاً .

والقول بأن محمداً صلى الله عليه «وسلم» كان يستحضر فى ذهنه دائماً قصص الرسل القدامى إلى العرب ويهود والمسيحيين ، ويتساءل : هل يقدر له أن يسلك فى صف أولئك الرسل ، يوهم أنه صلى الله عليه وسلم تطلع إلى النبوة قبل المبعث ، وهذ ما تنفيه سيرته عندما تلقى الوحى ؛ كما يوهم أنه تأثر فيما أبلغ من رسالته بقصص الرسل القدامى ، وهذا أيضاً ما ينفيه القرآن الكريم نفياً صريحاً ، سواء ما كان من هذه القصص مدونًا فى كتب الدين السابقة :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون » .

وما كان من القصص الأسطورية للأولين : « وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا . قل أنزله الذى يعلم السر فى السماوات والأرض . . » .

ثم يقول الدكتور هاشم بياناً لتأويله ، ما ترجمته الحرفية :

« وكلمتا "اقرأ ، والقرآن" متجانستان : فالأولى فعل أمر والثانية اسم ، وسواء أكانت القراءة مستعملة إذ ذاك فيما يُعلن جهرة أم لم تكن ، فهى هنا الإعلان الشفهى والإذاعة والخطاب أو الموعظة تُنشر شفاها (بكلمة فم) . وعلى هذا يكون معنى فعل الأمر اقرأ ، مشخصاً لسياسة الدعوة ومتضمناً خطة تبليغها : فقوم محمد كانوا متفرقين مبعثرين وأميين ، والكلمة المكتوبة التى خدمت الدعوات فى شعوب أكثر تقدماً ، لا يمكن أن تصل إلى الطبقات الفقيرة والعبيد فى المدن ، والبدو الضاربين فى الصحارى والواحات والكهوف . وإنما تصل إلى هؤلاء الكلمة المنطوقة وحدها .

« وفى مثل هذه الظروف يكون على الهادى الجديد أن يبلغ رسالته شفوياً . والكلمات ذات أجنحة ، والذى علمه الله بالقلم للقلة — من أمم سابقة ، متعلمة — التى تجدى معها قوة القلم ، صار الآن بحيث يذاع وينشر ويوصل إلى الكثرة من الجماهير عن طريق الكلمة المنطوقة وحدها ، بكل ما لها من سحر وسلطان عليهم .

« والراجح أن هذا كان فى أصل الديانات القديمة كلها : مزامير داود ، ووصايا زرادشت ، وأناشيد ريج فيدا البرهمية . وكل ما فى الأمر أن طبيعة القوم الذين كان على محمد أن ينشر دعوته فيهم ، جعلت مهمته أشق وأصعب . فلقد كانوا أكثر بدائية وأشد انفعالاً وتأثراً بالشعر منهم بالنثر المرسل . وبالرغم من كون موضوع الرسالة الجديدة يختلف تماماً عما ألفوه فى موضوعات الشعر من حب وحرب ونهب — Plunder — كان من الضرورى تبليغها بلغة القوم المنزلة فيهم ، وبمصطلحها فى التعبير ، وأسلوبها فى البيان ، ليكون لها من قوة التأثير ما تنتشر به انتشار الشمس فى الصحراء . . . »

ونسأل : أين هذا كله من كلمة « اقرأ » فى دلالتها العربية واستعمالها القرآنى ؟

الذى تعرفه لغتنا — لغة القرآن — أن القراءة تلاوة لنص مكتوب أو غير مكتوب . وللمادة دلالات معجمية أخرى ليس بينها ما جاء به الدكتور هاشم فى ترجمته وتأويله وتفسيره من صياح وقرع للطبول . . .

فإذا احتكمنا إلى القرآن ، نجده استعمل مادة « قرأ » فى ستة وثمانين موضعاً ، لا تحتمل إطلاقاً ما جاء فى هذا التأويل ، بل هى مما يرفضه وينفيه .

ونحن نجاهد منذ سنين ، لنؤصل منهجاً فى التفسير لا يجيز أن يقحم على النص القرآنى ما لا يحتمله لفظاً وسياقاً ، ويلزمنا هذا المنهج بألا نفسر لفظاً قرآنياً دون استقراء لكل مواضع استعماله فى كتابنا المحكم ، لكى نحرر فهمنا لهذا الكتاب الجليل مما فى كتب التفسير من مدسوسات إسرائيلية ومقحمات مذهبية وأذواق أعجمية .

وقبل أن نختصم مع « الدكتور هاشم أمير » على الأصول المنهجية لتفسير النص القرآنى ، نسأل كيف جاز أن يمر كلامه فى القرآن الكريم ، على مسمع منا فى جلسات المؤتمر ، دون أن نسأله : هل يسمح أى منهج بمثل ما جاء به من تأويلات ، فى فهم أى نص من النصوص ؟

ثم نسأل قومنا :

كيف جاز أن ينشر مثل كتاب "قرآن الطالب : The student's Qoran" على هذا النطاق الواسع ، ما بين نيودلهى ولندن ونيويورك ، دون أن يفحص ويُرد على ما فيه من شطط التأويل !

وكيف لا تُراقب هذه الترجمات القرآنية ، ولو بالقدر الذى يُراقب به ما ينشر فينا من ترجمات وشروح لنصوص من الآداب الغربية ، تجد نقاداً يسهرون على حمايتها من عبث المترجمين وخطأ الشراح وعدوان المتأولين ؟

والقياس مع الفارق البعيد . . .

وليس العهد ببعيد ، من غضبة نقاد الأدب عندنا حين قدم مسرح الأزبكية "تاجر البندقية" بنصها المترجم بقلم الشاعر « خليل مطران » كما لم يبعد عهدنا بما أنكر النقاد على « المنفلوطى » من تصديه لترجمة قصص فرنسية ، وهو لم يكن يعرف لغتها .

وتذاكرنا هناك فيما تذاكرنا ، أن الترجمات القرآنية العديدة التى نعرفها ، ليس فيها ترجمة لعربى مسلم !

فالميدان اتسع للمترجمين من مختلف الملل والأجناس فكانوا أحد رجلين :

مسلم غير عربى ، مثل « عبد الحكيم . وميرزا ، ومحمد على . وغلام سردار ، وعبد الله على . وهاشم أمير على . . . »

أو غير مسلم ولا عربى . من أمثال « ألكساندر روس ، وجورج سيل ، ورودويل ، وبالمر ، وريتشارد بل . وأربرى . . »

ولم يظهر فى الميدان ثالث . ممن هم أولى به وأقدر عليه : أعنى المسلمين من أصحاب العربية .

فهل كان إحجامنا نحن العرب المسلمين ، لأن فى الأفق لغطاً حول ترجمة معانى القرآن . وقد أفتى بعض الشيوخ بأنها بدعة مستحدثة لم يقل بها السلف الصالح ؟

أو كان هذا الإحجام ، عن تهيب وإشفاق من حمل هذه الأمانة الصعبة ؟

إن كانت الأولى ، فالسلف الصالح لم يكونوا فى القرون الإسلامية الأولى ، يواجهون حاجة إلى ترجمة معانى القرآن ، فالشعوب التى دخلت فى الإسلام بعد الفتوح الكبرى ، بادرت إلى تعلم لغة العرب كى تفقه كتاب دينها ، لكنا اليوم نواجه وضعاً شاذاً من مخلفات الاستعمار الذى فرض لسانه على شعوب مسلمة ، لغة تعليم وثقافة وأدب ، وذريعة غزو فكرى ووجدانى ، فلا سبيل لهذه الشعوب إلى فهم معانى القرآن إلا مترجماً إلى اللغات الأوربية .

وإن كانت الأخرى وأحجمنا عن ترجمة معانى القرآن تهيباً وإشفاقاً ، ففيم كان سكوتنا على ما ظهر من ترجمات قرآنية . ولماذا لم نهتم بمراجعتها وفحصها لنرى فى أى صورة نقل المترجمون كتاب ديننا ، إلى من تتعذر عليهم قراءته فى نصه الأصيل ؟

إن أقدم ترجمة قرآنية إلى الإنجليزية ، هى فيما أعلم ترجمة « ألكساندر روس » التى نشرت سنة ١٦٤٩ وأحدث ترجمة هى هذه التى قدمها « هاشم أمير على » لخمس عشرة سورة من "جزء عم" وطبعت فى نيودلهى ونيويورك ولندن ، عام ١٩٦١ .

ولا أذكر أنى قرأت أو سمعت عن مقال تصدى ، على ذلك المدى الطويل ، لترجمة من هذه الترجمات بنقد جاد ، وكأن الأمر لا يتصل بكتابنا الأكبر . فإذا لم يعننا أن نراجع الترجمات القرآنية غيرة على الدين وأداء لحق إخواننا المسلمين ممن لا يعرفون القرآن إلا فى هذه التراجم ، فلتكن القضية قضية النص الأعلى للعربية فى أنقى أصالتها ومعجز بيانها . نتصدى للدفاع عن حرمته ، كما يفعل زملاؤنا المتخصصون فى الآداب الغربية ، يغضبون للنص منها يمسه فى الترجمة تشويه أو تحريف .

والقياس مع الفارق البعيد . . .

عند ما التقينا :

هل لى بعد كل هذا الحديث الطويل عن مؤتمر المستشرقين ، فى كلمة أضيفها ، تكملة للصورة عنه ، وتحية لما قدمت إلينا الهند فى ختام دورته ؟

لقد كان ختاماً جديراً بهذه الأمة الشرقية العريقة ، ومكملاً لما بدأت به الدورة من نشيد الإنسان الذى رتله « الرئيس رادا كريشنان » ودعاء السلام الذى هتف به « الزعيم نهرو » .

وإن تكن تحيتى بعيدة فيما يبدو عن موضوع « تراثنا » الذى شغلنا هناك ، فإنها ليست بعيدة عن روح شرقنا ، صاحب هذا التراث .

ولعلى حين أتجه بالتحية إلى « تاج محل » أحاول أن ألفت إلى ما بين الآثار والتراث من صلة وثيقة ، إذ يعبران معاً عن روح الأمة ومزاجها .

* * *

فى المؤتمرات الدولية ، تحرص الدولة الداعية على أن يشاهد ضيوفُها نموذجاً يمثل حضارتها ويعبر عن شخصيتها .

وقد اختارت الهند أن تدعو ضيوفها المستشرقين إلى منطقة « أجرا وفاتح بورسيكرى » ليروا ما بها من آثار تعبر عن روح الشرق ، إيضاحاً وتكملة لما أعطاهم تراثه الفكرى .

والرحلة من نيودلهى إلى أجرا طويلة تستغرق يومين كاملين ، مشحونين ببرنامج حافل . وقد توقع كثير منا أن تجهدهم الرحلة بعد العمل الشاق فى أيام المؤتمر وكرهوا مع ذلك أن تفوتهم الفرصة ؛ فلبوا الدعوة وهم مشفقون من مشقتها .

لكن الهند استطاعت بالتنظيم الدقيق والضيافة الكريمة والاستعداد الممتاز ، أن تجعل منها رحلة ممتعة مثيرة ، تروغات بنا فى صميم روح الشرق ، ونقلتنا شبه مسحَّرين إلى دنيا العجائب .

وكل الآثار فى منطقه "أجرا وفاتح بورسيكرى" إسلامية . .

وتاريخها يرجع إلى العصر المغولى ، وهو يلتقى زمناً مع أواخر العصور الأوربية الوسطى .

وإسلامية هذه الآثار ، ترمز إلى الطابع الدينى المميز لحضارة هذا الشرق ، مهد العقائد والأديان ، ومنزل الرسالات الروحية من قديم الحقب والآباد .

وعظمتها المادية ، ترمز إلى المرحلة التى كان الشرق فيها مركز الحضارة قبل أن تعبر إلى الغرب .

وجمالها العبقرى ، يرمز إلى سر الروح ، يسرى فى الأثر الجامد الأصم ، فينبض بالحياة ويتوهج بحرارة العاطفة ودفئها .

* * *

ولا حق لى فى أن أطيل الاستطراد فأتحدث عما شاهدت هناك من عجائب آثار المنطقة ونحن ننتقل من قلعة أجرا إلى تاج محل وسيكاندرا . ومن بوابة النصر فى « بولاند داروزه » إلى مسجد « الشيخ سليم شيستى » وقصر فاتح بور سيكرى .

وإنما يكفى أن أقف عند « تاج محل » أعجوبة الدنيا ، لا لأصف روعة صرحه الشامخ وعبقرية هندسته ، ولا لأنقل ما سمعت من تفاصيل البناء ومواده وأبعاده ونفقاته وعدد مهندسيه وألوف العمال الذين تفرغوا لتشييده على مدى سبعة عشر عاماً . . . .

فالواقع أننى كنت ألقى ظاهر سمعى إلى ما كان الدليل يذكره لنا من كل ذلك وأنا مشغولة البال عنه ، فى تأمل مستغرق يشدنى بعيداً عن الزملاء الذين أمسكوا بأقلامهم ومفكراتهم ، وراحوا يدونون فى حرص وتتبع ، ما يملى الدليل من شروح وأرقام . . .

كنت بينهم حاضرة غائبة :

أصغى إلى إيحاء هذا الصرح العجيب ، ينتقلنى عبر مئات السنين إلى مسرح الأحداث لقصة حبٍّ خالد قهر الزمان وتحدى الفناء وفرض سلطانه على التاريخ .

وتراءت لى أطياف أبطالها الثلاثة الذين رحلوا عن الدنيا وبليت منهم الأجساد .

وبقيت ذكرى الحب الذى خاض معركته مع شهوة السلطان وجبروت المادة ، وانتصر عليهما .

انتصر على قوى المادة التى تسحق عواطف الإنسان .

كما انتصر على الزمان الذى يلقى بالماضى فى متاهة النسيان ، وعلى الموت الذى يُسلم أجسادهم إلى البلى والفناء . .

وتراءت لى أطيافهم تتهادى فى نشوة الحب ، ثم تمتد إليها يد النوى فتمزق الشمل ، وتلقى بهم فى مهب إعصار جائح يستنفد كل طاقاتهم المادية ، ولا يبقى منهم سوى وهج الروح وذكرى حبٍّ أبدى منتصر .

وعشت قصتهم بكل وجدانى ، وكأنْ لم تكر عليهم الأيام والليالى ، ولم ينسج الزمان بينى وبينهم حجاباً كثيفاً مداه أربعمائة عام !

عشتها منذ جاءت إلى قصر أجرا ، الشابة « البيجوم بانوا ، بنت الوزير يمين الدولة » عروساً رائعة الجمال باهرة الحسن ندية الصبا ، فى ربيعها التاسع عشر ، لتزف إلى ابن عمتها الامبراطورة نورجيهان : « الأمير خورام ولى عهد الامبراطور جاهانجير » وحفيد السلطان « أكبر » مؤسس الدولة المغولية بالهند .

ومنحها الامبراطور لقب « ممتاز محل » وعاشت ستة عشر عاماً مع زوجها الأمير ، ينهلان من نبع الحب الصافى ، لا تعكره مسئوليات الحكم ولا تثقله أعباء التاج .

حتى مات الامبراطور الأب « جاهانجير » فى لاهور سنة ١٦٢٧ ، وفى العام التالى أقيم حفل التتويج فى قصر قلعة أجرا . واعتلى الأمير خورام العرش باسم « الامبراطور شاه جاهان » ، وزوجته الحبيبة « ممتاز محل » إلى جانبه تحرسه وترعاه وتشاركه أعباء منصبه : حاملةً لخاتم الدولة ومستشارة أولى لشئونها .

ولا أحد يذكر ، أكان حبها النادر لزوجها هو الذى أغراها بحب رعيته من أجله ؟ أم كان قلبها الكبير قد اتسع لحب الزوج والشعب ؟

كل الذى يذكرونه أنها أمضت عاماً على العرش ، ملء القلوب محبة وإجلالاً ،

وقد استطاعت أن تلطف بحبها من ضراوة السلطان ، وأن تجمع قلوب الشعب حول زوجها الامبراطور ، بجاذبيتها الآسرة ، ولطف شمائلها ، وتصديها لحماية المظلومين ورعاية البؤساء .

عاماً واحداً فحسب ، ماتت بعده .

وقدمت حياتها هبة للحب .

صحبت زوجها الامبراطور ، وهى مثقلة بالحمل ، حين توجه لإخماد ثورة حاكم لإحدى المقاطعات . وهناك فى مدينة « بور هاربر » بالهند الوسطى ، اغتالها الموت وهى تضع وليدتها « جوهرة » .

ومن قبل جوهرة ، كانت ممتاز محل قد ولدت ثمانية بنين وخمس بنات ، اختطف الموت سبعة منهم فى حياتها ، ولكنه عجز عن أن يحرق بنار الثكل ، ذخيرة حبها !

وأودع الملك المحزون جثمانها قبر « أمانة » بحدائق زنداباد .

ثم عاد بعد ستة أشهر فحمل رفاتها إلى مدفن مؤقت فى «أجرا» كى يأنس بقربها ريثما يبنى لها « تاج محل » .

وعبث به الحزن فرفض أن يتقبل فى فقيدته أى عزاء ، وانصرف عن شئون الدولة ، وأعلن الحداد العام فى كل أنحاء البلاد ، فحظر استعمال العطور ولبس الحلى وارتداء الثياب الزاهية .

ومضت تسع سنين دأبا ، تم خلالها تشييد المدفن فى تاج محل ، ونُقل رفات الحبيبة إلى مثواها الأخير .

وواصل ألوف العمال عملهم ، ثمانى سنين أخرى ، لإتمام الصرح العجيب .

وشحنات المرمر الأبيض تُحمل من جابور ، والجواهر والأحجار الثمينة تجلب من بقاع الهند وفارس وعبر جبال هماليا ، وخزانة الدولة مفتوحة ، تجبى إليها ملايين الروبيات لتتدفق سيلاً يصب فى تاج محل !

والملك سادر فى حزنه ، لم يعد يعنيه من الدنيا إلا أن يتم تشييد البناء ، ثم يرقد إلى جوار الحبيبة الراحلة .

وطالت سنوات الانتظار وهو يمضى لياليه الطوال أشبه بروح هائمة ، تطيف بمثوى الراقدة الغالية ، وتتجول هائمة فى حديقة التاج ، حيث حفرت بحيرة تحف بها أشجار الحور الحزينة ، يصغى الملك إلى نواحها كلما هبت ريح ، ويحدق فى مياه البحيرة وهى تبدو لعينيه بحراً من دموع . . .

وقد تم تشييد صرح تاج محل عام ١٦٤٨ . وآن لشاه جاهان أن يعود إلى شواغل الدولة . ولكنه لم يعد ينتمى إلى هذه الدنيا منذ رحلت عنها « ممتاز محل » .

بل لم يعد يعنيه أن ينفد صبر ابنه « أورانجزب » فيثب على العرش بعد عشر سنوات . ويسجنه فى قاعة ضيقة بقلعة أجرا .

كل ما عناه أن يجد فى جدار محبسه كُوَّةً صغيرة يطل منها على مرقد « ممتاز محل » وأن يخلو فى وحدته إلى طيفها ، يناجيها حتى يحين اللقاء .

وقد حان اللقاء بعد سبع سنين ، فأضجعه ولده الامبراطور أورانجزب إلى جوار « ممتاز محل » فى المثوى الذى ظل على مر السنين وتتابع القرون ، مزاراً للأحياء من كل جنس وملة ..

يشهدون أعجب صرح شيده الحب ، ويحنون رءوسهم خاشعين أمام مغزى الرمز وإيحاء الذكرى .

ويستردون إيمانهم بسرِّ الحياة . .

ويحيون لحظة فى معبد الحب ومجلى الروح ، قبل أن تشدهم الدنيا بأثقالها ، وتلفهم دوامة الوجود المادى بدوارها العنيف وهديرها الصاخب .

وهناك التقينا !

نحن الذين جئنا من شتى بقاع الأرض ، جمعاً مختلطاً متفاوت الأزياء والألوان . مختلف الملامح والسمات ، متغاير المذاهب والعقائد .

بعد ثمانية أيام قضيناها فى المؤتمر ، لم نستطع خلالها أن ننسى لحظة أننا ننتمى إلى شرق أو غرب . وأننا منا المسلمون ومنا المسيحيون والبوذيون ومن لا دين لهم .

ولا أفلحنا فى تجاهل ما بيننا من فوارق وفواصل .

حتى التقينا فى المعبد
فتماحت الفواصل وارتفعت الحواجز
بنفثة سحرٍ من روح الشرق .

تجلو عن جوهر الإنسان فينا ما تراكم فوقه من أحقاد التفرقة وأثقال المَلَل وأعباء الصراع وكثافة المادة .

وتسرى فى كياننا روحاً علوية متألقة بنور الإيمان وحرارة الحب .

كما سرت فى المرمر الأصم والهيكل المادى للصرح الشامخ ، فبثت فيه معنى الوجود وسر الحياة .

وفى رهبة الصمت الخاشع ، تناهى إلى مسمعى من بعيد ، صدًى من دعاء « الرئيس رادا كريشنان » يوم افتتاح المؤتمر :

«تقابلوا معاً ، وتحادثوا معاً
لعل عقولكم تلتقى . .
فى تفاهم وقربى
ولتكن أفكاركم وعواطفكم وأمانى قلوبكم
نابعة من ضمير الإنسان
ومتجهة إلى الحب والخير
وعلى الطريق سيروا معاً
نحو وحدة البشر . . . »

فهل كان هذا اللقاء بين الجمع الحاشد المختلط مقصوداً لذاته من رحلة أجرا التى خَتَم بها برنامج المؤتمر دورته السادسة والعشرين ؟

مهما تكن جدوى هذه التجربة . فى استجابتنا لدعاء الإنسان ، فإن الرحلة قد حققت هدفها العلمى . حين قدمت لنا من روح الشرق وملامح شخصيته فى آثاره المادية . ما يؤكد ويوضح ويكمل ذلك الذى أعطاه تراثه الفكرى والروحى والأدبى .